رسائل تلّغرافيّة
(١٦)

«ما الَّذِي يَنْبَغِي؟!»
«وصيَّةُ الإمام القُرْطِبيِّ صاحِبِ الجامعِ»

بَلَّغَهُ

الدكتور ابن الكيال

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد للَّه وحده والصلاة والسلام علىٰ من لا نبيَّ بعده ﷺ، **أما بعد**:

فمن أجلّ تفاسير أهل السنة والجماعة لكتاب اللَّه تعالىٰ: «الجامع لأحكام القرآن» للإمام أبي عبد اللَّه محمد بن أحمد الأنصاري القرطبيّ المتوفّىٰ سنة ٦٧١هـ) الإمام الحافظ المفسّر الفقيه الأصولي اللغوي.

وذلك؛ لأنه جمع في تفسيره هذا أحكام القرآن فقهًا، وأصولًا، ولغةً، وفهمًا، وإدراكًا، وهو بمثابة جمع أدلة الأحكام في سنة رسول اللَّه ﷺ، ككتاب «المنتقىٰ» للمجد ابن تيمية، الذي شرحه الشوكاني في «نيل الأوطار»، و«بلوغ المرام من جمع أدلة الأحكام» لابن حجر العسقلاني، صاحب «فتح الباري بشرح صحيح البخاري»، والذي شرحه الإمام الصنعاني، وغيره من عشرات الكتب التي علىٰ هذا المنوال والسياق.

وذلك؛ لأن القرطبيّ استقصىٰ فقه كل آية وتفسيرها بما فيها من علوم الفقه الإسلامي، وأصول الفقه، والبيان، والمعاني، واللغة، بحيث لا يستغني عنه طلبة العلم، لاسيما الفقيه الأصولي، إذْ هذا الجامع قد جمع له مراده وبُغْيته في هذا الشأن، وهذا باتفاق أهل العلم علىٰ صفته بذلك، فخذوا عنّي هذا وعضوا عليه بالنواجذ؛ فإنه لا يستقيم لك الأمر إلّا بذلك.

ولقد افتتح القرطبيّ «جامعه» بمقدمة مهمة جدًّا، فيها جملة من الأصول التي تلملم وتؤصّل لطالب العلم شتات تفسير القرآن، وما يتعلق به من العلوم، وهي

مقدمة طويلة جليلة، فيها فوائد جمّة، ذكرت فيها هذه الوصية في هذا البلاغ:

قال القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ٣٧، ٣٨) تحت «باب ما ينبغي لصاحب القرآن أن يأخذ نفسه ولا يغفل عنه»:

«١- فأوّل ذلك: أن يُخلص في طلبه للَّه ﷻ، وأن يأخذ نفسه بقراءة القرآن في ليله ونهاره، في الصلاة وفي غير الصلاة لئلا ينساه.

روىٰ مسلم [٧٨٩] عن ابن عمر أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**إنما مثل صاحب القرآن كمثل الإبل المعقّلة، إن عاهد عليها أمسكها، وإن أطلقها ذهبت، وإذا قام صاحب القرآن فقرأ بالليل والنهار ذكره، وإذا لم يقم به نسيه**».

٢- وينبغي له أن يكون للَّه حامدًا، ولنعمه شاكرًا، وله ذاكرًا، وعليه مُتوكلًا، وبه مُستعينًا، وإليه راغبًا، وبه معتصمًا، وللموت ذاكرًا، وله مُستعدًّا.

٣- وينبغي أن يكون خائفًا من ذنبه، راجيًا عفو ربّه، ويكون الخوف في صحّته أغلب عليه؛ إذ لا يعلم بما يُختم له، ويكون الرجاء عند حضور أجله أقوىٰ في نفسه؛ لحسن الظن باللَّه، قال رسول اللَّه ﷺ: «**لا يموتن أحدكم إلّا وهو يُحسن باللَّه الظنّ**» [رواه مسلم (٢٨٧٧)؛ أي: أنه يرحمه ويغفر له.

٤- وينبغي أن يكون عالمًا بأهل زمانه، مُتحفّظًا من سلطانه، ساعيًا في خلاص نفسه، ونجاة مُهْجته، مقدمًا بين يديه ما يقدر عليه من غرض دنياه، مجاهدًا نفسه في ذلك ما استطاع.

٥- وينبغي له أن يكون أهمّ أموره عنده الورع في دينه، واستعمال تقوىٰ اللَّه، ومراقبته فيما أمره به ونهاه عنه.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «ينبغي لقارئ القرآن أن يُعرف بليله إذا الناس نائمون،

وبنهاره إذا الناس مستيقظون، وببكائه إذا الناس يضحكون، وبصمته إذا الناس خائضون، وبخضوعه إذا الناس يختالون، وبحزنه إذا الناس يفرحون».

وقال عبد اللَّه بن عمرو ﷺ: «لا ينبغي لحامل القرآن أن يخوض مع من يخوض، ولا يجهل مع من يجهل، ولكن يعفو ويصفح لحق القرآن؛ لأن في جوفه كلام اللَّه تعالىٰ».

٦- وينبغي له أن يأخذ نفسه بالتَّصاوُن عن طرق الشُّبهات، ويقل الضحك والكلام في مجالس القرآن وغيرها بما لا فائدة فيه، ويأخذ نفسه بالحلم والوقار.

٧- وينبغي له أن يتواضع للفقراء، ويتجنّب التكبُّر والإعجاب، ويتجافَىٰ عن الدنيا إنْ خاف علىٰ نفسه الفتنة، ويترك الجدال والمراء، ويأخذ نفسه بالرفق والأدب.

٨- وينبغي له أن يكون مِمَّن يؤمَنُ شرُّه، ويُرجىٰ خيْره، ويُسلم من ضرّه، وألّا يسمع مِمَّن نَمَّ عنده، ويصاحب من يعاونه علىٰ الخير ويدلّه علىٰ الصدق ومكارم الأخلاق، ويَزينه ولا يَشينه.

٩- وينبغي له أن يتعلّم أحكام القرآن؛ فيفهم عن اللَّه مراده، وما فرض عليه، فينتفع بما يقرأ، ويعمل بما يتلو؛ فما أقبح لحامل القرآن أن يتلو فرائضه وأحكامه عن ظهر قلب، وهو لا يفهم ما يتلو، فكيف يعمل بما لا يفهم معناه؟! وما أقبح أن يسأل عن فقه ما يتلوه ولا يدريه! فما مثل من هذه حالته إلّا كمثل الحمار يحمل أسفارًا.

١٠- وينبغي أن يعرف المكيّ من المدنيّ من القرآن، ليفرّق بين ما خاطب اللَّه به عباده في **أول الإسلام**، وما ندبهم ودعاهم إليه في آخر الإسلام، وما افترض اللَّه في أوّل الإسلام، وما زاد عليه من الفرائض في آخره، فالمدني هو الناسخ للمكي

في أكثر القرآن، ولا يمكن أن ينسخ المكي المدنيّ؛ لأن المنسوخ هو المتقدّم في النزول قبل الناسخ له.

١٠- وينبغي من كماله أن يعرف الإعراب والغريب، فذلك ممّا يسهّل عليه معرفة ما يقرأ، ويزيل عنه الشكّ فيما يتلو.

وقد قال أبو جعفر الطبريّ: سمعت الجَرْمِيّ يقول: «أنا منذ ثلاثين سنة أُفتي الناس في الفقه من كتاب سيبويه»، قال محمد بن يزيد: وذلك أن أبا عمر الجَرْميّ كان صاحب حديث، فلما علم كتاب سيبويه تفقه في الحديث؛ إذْ كان كتاب سيبويه يُتعلم منه النظر والتفسير.

• ثم ينظر في السنن المأثورة عن رسول اللَّه ﷺ، فبها يصل الطالب إلىٰ مراد اللَّه ﷻ في كتابه، وهي تفتح له أحكام القرآن فتحًا؛ وقد قال الضحّاك في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩]، قال: «حق علىٰ كل من تعلّم القرآن أن يكون فقيهًا».

• وذكر ابن أبي الحواري قال: «أتينا فُضيل بن عياض سنة خمس وثمانين ومائة ونحن جماعة، فوقفنا علىٰ الباب فلم يأذن لنا بالدخول، فقال بعض القوم: إن كان خارجًا لشيء، فسيخرج لتلاوة القرآن، فأمرنا قارئًا فقرأ، فاطّلع علينا من كُوّة، فقلنا: السلام عليك ورحمة اللَّه، فقال: وعليكم السلام، فقلنا: كيف أنت يا أبا عليّ وكيف حالك؟ فقال: أنا من اللَّه في عافية ومنكم في أذًىٰ، وإنّ ما أنتم فيه حَدَث في الإسلام، فإنا للَّه وإنّا إليه راجعون! ما هكذا كنا نطلب العلم، ولكنّا كنا نأتي المشيخة فلا نرىٰ أنفسنا أهلًا للجلوس معهم، فنجلس دونهم ونسترق السمع، فإذا مرّ الحديث سألنهم إعادته وقيدْناه، وأنتم تطلبون العلم بالجهل، وقد ضيعتم كتاب اللَّه، ولو طلبتم كتاب اللَّه لوجدتم فيه شفاء ما تريدون»، قلنا:

قد تعلمنا القرآن؛ قال: «إن في تعلّمكم القرآن شغلًا لأعماركم وأعمار أولادكم»، قلنا: كيف يا أبا علي؟ قال: «لن تعلموا القرآن حتىٰ تعرفوا إعرابه، ومحكمه من متشابهه، وناسخه من منسوخه، فإذا عرفتم ذلك استغنيتم عن كلام فُضيل وابن عيينة»، ثم قال: «أعوذ باللَّه السميع العليم من الشيطان الرجيم، بسم اللَّه الرحمن الرحيم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٧، ٥٨].

• [قال القرطبيّ:] قلت: فإذا حصلت هذه المراتب للقارئ كان ماهرًا بالقرآن، وعالمًا بالفرقان، وهو قريب علىٰ من قرَّبه اللَّه، ولا ينتفع بشيء مما ذكرنا حتىٰ يُخلّص النية للَّه جلّ ذكره عند طلبه، أو بعد طلبه كما تقدم.

• فقد يبتدئ الطالب للعلم يريد به المباهاة والشرف في الدنيا، فلا يزال به فَهْم العلم حتىٰ يتبيّن أنه علىٰ خطأ في اعتقاده فيتوب من ذلك، ويُخلص النيّة للَّه تعالىٰ، فينتفع بذلك ويحسن حاله.

قال الحسن البصري: «كنا نطلب العلم للدنيا فجرّنا إلىٰ الآخرة»، وقاله سفيان الثوري.

وقال حبيب بن أبي ثابت: طلبنا هذا الأمر وليس لنا فيه نيّة ثم جاءت النيّة بعد». اهـ

قلت: فإذا كان ذلك كذلك، وتقرر عندك ما مضىٰ بيانه، فليس ثَمَّ إلَّا الفهم الصحيح، والإدراك السليم، والتصوّر الحسن، والوعي الصائب، في كل ما ينبغي عليك علمه وعمله، نيّة، وقولًا، وعملًا، في كل ما أوصاك به الإمام القرطبيّ، والتدبّر في فقهه ومعناه؛ فإنه أصل الإسلام، ودعامة الدين، وصلاح

المعتقد، وإلّا: «فما هكذا تورد يا سعد الإبل».

روىٰ البيهقي في «السنن الكبرىٰ» (١٠/ ١٠٤) في كتاب آداب القاضي، باب التثبُّتِ في الحكم، عن علي رضي الله عنه قال:

«أوردها سعد وسعدٌ مشتمل يا سعد لا تُرْوىٰ بها ذاك الإبل»

ثم قال البيهقي: هذا مثال يقال: إن أصله أن رجلًا أورد إبله ماءً لا تصل إلىٰ شُرْبِه إلا بالاستقاء، ثم اشتمل [يعني: تغطَّىٰ] ونام وتركها، يقول: فهذا الفعل لا تَرْوَىٰ به الإبل».

فهل فهمت يا حصيف؟!

وهو من وراء القصد وهو يهدي السبيل، والحمد للَّه رب العالمين.

بلَّغه

الدكتور ابن الكيَّال